هموم شعرية

إبراهيم زولي

تقف هذه الزاوية مع شاعر عربي في علاقته مع قارئه وخصوصيات صنعته، لا سيما واقع نشر الشعر العربي المعاصر ومقروئيته. «ا تمنّى ان يستمرّ الشعر العربي في تجديد ذاته والتعبير عن الإنسانية جمعاء»، يقول الشاعر السعودي

لنقرأ المتنبّي والمعرّي قبل بيرس ورامبو

إبراهيم زولي

جيزان (السعودية) ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزّة؟

في كلّ يوم، ومنذ نحو تسعة أشهر، عقب سماع نشرات الأخبار، ترشح شاشة التلفاز دموعاً سوداء وغارات ساقة وجثثاً تملأ أرضيّة الغرفة. أقول لك إنّ الدّم في جهة والكتابة في جهة أخرى. ربّما يكون الدّم إلى الفردوس أسرع.

■ من هو قارئك؟ وهل تعتبر نفسك شاعراً مقروءاً؟

فكرة المتلقّي لا تغويني. المبدع الذي يستجدي التصفيق، أو يكتب وعينه على المتلقّي، لا يُحترم نصُّه، حيث لم يعُد الشاعر ذلك «النبيّ» أو الحاوي الذي يسعى إلى معنى أو فكرة جديدة لإيصالها إلى المتلقّي. تخلّى الشاعر عن دوره التقليدي في الذهنيّة العربية، أو بمعنى أدقّ، المهمّة التي كانت على عاتقه هي التي تخلّت عنه باتجاه وسائط وأقنية أخرى.

■ كيف هي علاقتك مع الناشر، هل لديك ناشر وهل هو الناشر الذي تحلم به لشعرك؟

أعترف بأنّ الناشر المثقّف والمتنوّر لم يعد موجوداً في المشهد الثقافي العربي. أغلب الناشرين أشبه بالورّاقين، لا يعرف من محتوى الكتاب الذي سيطبعه إلّا كم سيجلب له من مال، ولا يعنيه، من قريب أو بعيد، المنجز المعرفي الذي سيضيفه للناس. هذا قد يختصر علاقتي بالناشر.

■ كيف تنظر إلى النشر في المجلّات والجرائد والمواقع؟

جُلّ الكتّاب العرب تعرّفنا عليهم عبر زواياهم في الصحف والمجلّات، وهذه الظاهرة التي تمتدّ لأكثر من قرن، ليست بدعة عربية، بل هي ظاهرة عالمية، إذ تجد روائياً بقامة دوستويفسكي نشر فصول روايته «في قبوي» في إحدى المجلّات قبل أن يدفع بها إلى المطبعة. وعربياً، نشر نجيب محفوظ فصولاً من رواية «أولاد حارتنا» في جريدة «الأهرام»، قبل أن تصدر في بيروت، والمفارقة الطريفة أنّها مُنعت من النشر في القاهرة بعد أن نُشرت في الصحيفة. النشر مهمٌّ جدّاً لكلّ كاتب، صغيراً كان أم كبيراً، ليكتشف نفسه قبل أن يلتقي القرّاء.

■ هل تنشر شعرك على وسائل التواصل الاجتماعي، وكيف ترى تأثير ذلك في كتابتك أو كتابة زملائك ممن ينشرون شعرهم على وسائل التواصل؟

وسائل التواصل الاجتماعي فضاء مفتوح لكلّ كتابة، غثّها وسمينها، جيّدها ورديئها، وهذا الفجّ قلّما تجد شاعراً أو مثقّفاً نجا من شراكه، وأنا واحد من هؤلاء. أثر ذلك ضبابي ومُلتبس، إذ لا يمكن أن تعرف الصدى الحقيقي لما تنشره، ذلك أنّ ثمّة من يحظى في مواقع التواصل، فيسبوك وإكس، بشهرة ومقروئية أكثر من منجزه، إلّا أنّه بريق مستعار، وظلّ عابر، ووهج أني ومرحلي، لا يلبث أن يزول.

■ من هو قارئ الشعر العربي اليوم في رأيك؟

قلّةٌ أولئك القرّاء، وأقلّ منهم ذلك الذي يقرأ الشعر باعتباره همّاً يومياً، ويتابع بشغف الآفاق التي بلغتها القصيدة الجديدة. لستُ مبالغاً إذا قلت حتى الشعراء لم يعُودوا يقرأون الشعر. قرأتُ عبارة جارحة وموجعة من كتاب «هنا والآن»، لبول أوستر، وجي إم كوتزي، تقول: «لم يعُد أحد يؤمن أنّ الشعر (أو الفنّ) قادر على تغيير العالم. الشعراء الآن في كلّ مكان، ولكنهم لا يكلّمون إلّا بعضهم بعضاً». هذه قد تختصر تلك الحقيقة.

■ هل توافق أن الشعر المترجم من اللغات الأخرى هو اليوم أكثر مقروئيّة من الشعر العربي، ولماذا؟

من الصعب أن نُطلق مثل هذا النوع من الأحكام من دون دراسة أو استقراء. بيد أنّ الشعر المترجم قدّم إضافات للشعرية العربية لا يُمكن لأحد أن ينكرها، لا سيما في قصيدة النثر، وفتح نوافذ وعوالم لم نكن لنعرفها لولا الترجمة، على الرغم من تأخّر العرب في هذا الحقل، وحتى لو كانت الترجمة خيانة مشروعة، أو قبلة من خلف زجاج.

> الناشر المثقّف لم يعد موجوداً في المشهد الثقافي العربي

■ ما هي مزايا الشعر العربي الأساسية وما هي نقاط ضعفه؟

لا أدري لو كانت لدينا إجابة دقيقة، وإن جزمنا واستقرّ في ضمائرنا أنّ الشعر العربي ينفرد بالغنائية والصوت العالي، حيث أرتبط تاريخياً بالإنشاد، فإنّ الإجابة عن هذا السؤال لا تتأتّى إلّا لمن قرأ لأكثر شعراء العالم بلغتهم، ليتمكّن من إدراك الظواهر والفروقات بين كلّ نسق شعري. لكن القصيدة العربية، منذ النصف الثاني من القرن الفائت، اشتبكت مع أغلب النصوص العالمية وامتاحت من ينابيعها.

■ شاعر عربي تعتقد أن من المهم استعادته الآن؟ ما يُؤسف له، أن تجدَ أحدهم يُردّد مقاطع لسان جون بيرس، وهو لم يتصفّح ديوان المتنبّي، أو يقرأ لرامبو من دون أن تمرّ على شرفته إشراقات المعرّي وتراكيب أبي تمام.

■ ما الذي تتمنّاه للشعر العربي؟

ببساطة، أن يستمر في تجديد ذاته والتعبير عن الإنسانية جمعاء. وأن يظلّ مصدراً وباباً للتأمل.

بطاقة

شاعر وكاتب سعودي من مواليد مدينة ضمد بمنطقة جازان عام 1968. حاصل على إجازة في اللغة العربية وآدابها. عمل في التدريس. صدرت له تسع مجموعات شعرية، من بينها: «رويداً باتجاه الأرض» (1996)، و«رجالٌ يجوبونَ أعضاءنا» (2009)، و«قصائد ضالّة: كائنات تمارس شعيرة الفوضى» (2010)، و«من جهة معتمة» (2013)، و«حرس شخصي للوحشة» (2015). تُرجم عددٌ من نصوصه إلى الإنكليزية والفرنسية.

معرض

لوحات وبطاقات بريدية تُذكّر بتراث مدينة منسيّة

دروبٌ فنّية إلى طرابلس الشام

من معرض «مجموعة الفنّانين العشرة: هويّة منفتحة على الوجود»

يستعيد معرضا «مجموعة الفنّانين العشرة» و«طرابلس الشام»، في «متحف نابو» شمالي لبنان، جوانب من تراث المدينة ومسارات الحداثة فيها

بيروت ـ **العربي الجديد**

ضمن فعاليات تظاهرة «طرابلس عاصمة للثقافة العربية» لعام 2024، شهد «متحف نابو» في منطقة شكّا شمالي لبنان، مساء التاسع والعشرين من حزيران/ يونيو الماضي، افتتاح معرضين حول المدينة: «مجموعة الفنّانين العشرة: هويّة منفتحة على الوجود»، و«طرابلس الشام: جولة مُصوّرة على البطاقات البريدية»، واللذين يتواصلان حتى منتصف أيلول/ سبتمبر المُقبل، في محاولة للإضاءة على جوانب من إرث طرابلس الثقافي والفنّي الممتدّ طيلة القرن العشرين إلى اليوم.

يتزامن المعرض الأوّل، الذي يحتضنه الطابق الأوّل من المتحف، مع مرور خمسين عاماً على تأسيس مجموعة «الفنّانين العشرة»، التي شكّلت ظاهرة لافتة في المشهد التشكيلي اللبناني منذ منتصف السبعينيات، وأمّدت الحركة الفنّية في البلاد بأبرز الأسماء التي نشطت بين طرابلس وبيروت ودمشق وباريس وأثينا، وتتكوّن من: محمد الحفّار (1929 - 1993)، وعبد الرحيم غالب (1931)، وسلمى معصراني (1949)، ومحمد غالب (1935 - 2020)، وبسّام الديك (1943 - 2016)، وفضل زيادة (1944)، وعبد اللطيف بارودي (1944)، وفيصل سلطان (1946)، وعدنان خوجة (1948)، ومحمد عزيرة (1949).

وتأتي أهمية استعادة هذه المجموعة من كونها شكّلت، بأعمالها المتنوّعة، تيارات وأفكاراً مختلفة، بعيداً عن المركزية البيروتية التي لا تزال مُهيمنة وسائدة، وكرّست أشكالاً محدّدة بدأت منذ ما قبل الحرب الأهلية (1975 - 1990) واستمرّت بعدها؛ إذ نلمس في لوحات المجموعة أساليب عديدة، سواء على المستوى الفنّي المباشر أو على مستوى الخلفيّات الاجتماعية، حيث يمكن القول إنّنا نسمع من خلالها أصداء الحياة اليومية في المدينة اللبنانية (طرابلس)، وما اشتهرت به من حِرَف وطُرُز عمرانية وشوارع قديمة، فضلاً عن علاقتها المُميّزة بالبحر، والتي تكشف عنها بعض لوحات المعرض.

> أعمال فنّية تُصوّر معالم المدينة خلال فترة تمتدّ لأكثر من مئة عام

أمّا المعرض الثاني فيُقام في الطابق الثاني من المتحف، وهو من المجموعة الخاصّة من البطاقات التي يقتنيها الباحث بدر الحاج (سبق أن صدرت عام 2010 في كتاب يحمل العنوان نفسه)، ويُضيء من خلالها الباحث على بواكير الحداثة في طرابلس منذ أواخر القرن التاسع عشر، أي قبل أن تكون «لبنانية» فقط، ومن هُنا جاءت تسمية المعرض «طرابلس الشام» لإظهار عُمق المدينة الحضاري وصلاتها بمُدن الداخل السوري من دمشق إلى حمص وصولاً إلى الساحل مع اللاذقية وطرطوس.

ومن المعالم الطرابلسية التي تظهر في البطاقات: سكّة الحديد، وبرج السباع، وبرج الساعة الحميدية، والبوابة في الميناء، وبركة البدّاوي، ومقهى التل، بالإضافة إلى المساجد والمناظر الطبيعية والمرافق العامّة. وقد جمعها الحاج من مصادرها الأصلية التي تعود إلى استديوهات التصوير التي أُقيمت في المدينة خلال النصف الأوّل من القرن العشرين؛ مثل: «فوتو سبور» و«صرافيان أخوان» و«دولوكس استيل» و«منشورات الشرق».

قراءة

«فيما تُمعن فيك الأشياء العادية» لأصالة لمع

فردٌ يتّسع بمُمكناته

قصيدة الشاعرة اللبنانية رجعٌ لتلك الحيرة بين ما تخبرنا به الفنون الخارجة عن سلطة الزمن وبين ما نعرفه عن الحياة العادية الخاضعة لسُلطته

سومر شحادة

قصائد الشاعرة اللبنانية أصالة لمع (1989) بحثٌ دائبٌ عن مرجعية تراها في فنون أُخرى، أو تستقيها وتستلهمها من فنون أُخرى، ثمّ ترمي بها إلى الحياة العادية. والعادي هنا في مجموعة «فيما تمعن فيك الأشياء العادية»، الصادرة عن «منشورات المتوسّط» (2023)، ليست قصيدة اليوميات بالصورة التي عرفناها انشغالاً بما هو رتيب وثابت ومتواتر، وإنّما هو تلك الحياة الداخلية التي تختلط فيها الرغبات بلا توقّف، فالقصائد تُشهر رؤيتها القادمة من الفنّ والممثّلة للفنّ في وجه المحدود والمقيّد. واختلاط الحواس الذي تفيض به النصوص رجعٌ لتلك الحياة التي يصوّرها الفن، رجعٌ لتلك الصورة المثالية التي يحملها الفنّ عن الوجود. كما لو أنّ شِعرها يقتنص من الحواس العادية، كما لو أنّ إمعاناً مثالياً يريد أن ينفذ داخل إمعان آخر مبتذل، وقد ابتذلته الرتابة. لكنّ كليهما حائر. وقصيدة لمع تصوير لتلك الحيرة، ورجعٌ لتلك العلاقة التي تلوب من غير أن تهدأ بين ما تخبرنا إياه الفنون باعتبارها خرجت عن سلطة الزمن، وما نعرفه عن الحياة العادية باعتبارها خاضعةً لسلطة الزمن والممكن.

بهذه الصورة، عبارتها الشعرية مضبوطة بين قوّتين، إحداها تريدُ أن تخلقَ معنىً جديداً، أن تكون ابتكاراً، وأُخرى تركن إلى قول يشبه الحديث العابر. وعلى هذا النحو، تُصوّر الشاعرة الخيال باعتباره نجاةً في مطلع الديوان، إلّا أنّه في نصوص أُخرى يكون عائقاً وقيداً يُحجب المرء عن حواسه المضطربة، وعن يومياته التي أرادها أن تستمرّ عاديةً، لكنّ العادي شقٌّ عليه. والشاعرة تريد أن تنفي الذاكرة، وأن تنهل من بياض وعدم، ومن خَلاء. تريد أن تقتص من خيالها الذي يعود بها إلى ماضٍ مفقود، إلى مكان مفتقَد، وإلى بشر مفتقَدين، وإلى مشاعر مفقودة أو منتزعة منها أو متعذّرة عليها.

الخيال، بهذا، إحدى المفردات التي تمكن قراءة القصائد بالاستعانة به، فهو أقرب لأن يكون زاد طريق، زاداً لمهاجر ترك مكان طفولته، وأخذ بعيد تركيبه على طول الرحلة. حتى إنّ الخيال في الديوان أحد العاديات لمرّات تكراره كما في نصوص مثل «طرقات لخيال واحد» و«الذاكرة تعيق القطار يغادر»:

«لا تحزنْ على شيءٍ
سوى الحكاية
التي لم ينجُ فيها أحد
حتّى الخيال
حتّى أنت.
امشِ، امشِ
كأنّكَ غيرُ مَرئيٍّ
كأنّكَ صرتَ أقلَّ كثافة
من أنْ تصطدمَ بشيء
أو أحد
امشِ ولا تتوقّفْ
بين أشجارٍ تفقدُ أوراقَها».

أمّا بخصوص المرجعية التي تبحث عنها القصائد، وبخصوص تلك الحاجة التي يلمسها القارئ لإسنادٍ ما هو مكتوب إلى تجربة حيّة، أو بإسناد المكتوب إلى تجربة متخيّلة أو تجربة مرجوّة، حتى بخصوص تلك الحيرة التي تظهر أصيلة، وكأنّها بذاتها الموضوع الذي تدور حوله القصائد كلّها؛ ربما تكون قصيدتها «النجوم في لوحة فان جوخ» القصيدة المثالية لتنوب عن المجموعة الشعرية كاملةً بما فيها من قلق وارتباك وتردُّد يشبه كتابة سطر ثمّ محوه. استعارة استلفها بدوري من قصيدة بشارة الخوري (1890 - 1964) المُغنّاة «يبكي ويضحك لا حزناً ولا فرحا... كعاشق خطّ سطراً في الهوى ومحا». ديوان الشاعرة اللبنانية أمثل تعبير لبيت الشعر اللبناني، إلّا أنّ العاشق هنا؛ صوتٌ مُفرد. وقصارى جهد الشاعرة أن تقسر هذا الصوت على الصمت، فقولها متردّد وحائر. وكأنّما الريح تحمله، لا الكلمات. قصائد كثيرة تُصوّر هذا مثل «قلق» و«تيه»، إلا أنّنا نقرأ في قصيدتها «النجوم في لوحة فان جوخ»:

> إشارةٌ يطلقها أحدهم وهو على التلّ ليُخبر الآخرين بوجوده

«النجومُ
في لوحةِ فان جوخ
أجملُ من النجوم
في السماء

الذكرى
التي تختالُ في بالِ الرَّجلِ الآن
وتكادُ تقتلُهُ حنيناً
أجمل
ممَّ حدثَ له فعلاً
لكنَّهُ لم يَعُدْ يُدركُ ذلك

وهذا الظلُّ في المساء
خلفَ ستارةٍ مُغلقة
كيف صارَ أشدَّ فتنة
من جسدِ تلكَ المرأة
الذي يدوبُ في اللّيل؟

(روائي من سورية)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

أصالة لمع

إطلالة

فلسطين من لبنان

عباس بيضون

تتوالى تصريحات المسؤولين الإسرائيليّين عن الحرب على لبنان. تتلاحق في تتابُع واصرار هُما، في الوقت ذاته، استباقٌ للحرب وجزء منها. لا بدّ أنّ اللبنانيّين الذين يشاهدون الحرب على غزّة على شاشات التلفزيون يفهمون الآن ماذا تعني حرب إسرائيل. ليست هذه هي الحرب الأُولى لإسرائيل على لبنان.

لكن مَشاهد القتل الحُرّ والدمار الكلّي، ونقص بل إدقاع الفلسطينيّين وبقاءهم من دون حاجاتهم الأساسية، بل ومن دون مساكن وطعام وأدوية، تؤذن بأنّ حرب «إسرائيل» التالية ستكون أكثر ضراوة بما لا يُقاس، وستطاول هذه المرّة الناس كافّةً ولن ينجو منها أحد. لن تكون حرباً على الشيعة فقط، بل على اللبنانيّين في جملتهم، ستطاول عن عمد هذه المرّة المناطق والطوائف كلّها. تنبئنا مشاهد الحرب على غزّة بأنّ استهداف المدنيّين والقتل العشوائي والحصار المعيشي والاقتصادي والطبّي أعراض أساسية مقصودة، بل سلاح رئيسي يعمد الإسرائيليون إليه ويتقصّدونه.

أمرٌ كهذا في بلد منقسم طائفياً، بل يحيا منذ نشأته وقبلها حرباً أهلية مضمرة ومعلنة في آن معاً، في وسعنا القول إنّ هذه الحرب ليست بعيدة عن أوضاع المنطقة، بل هي في أحيان كثيرة صدى لها، تتقاطع معها وتنقلها إلى الداخل اللبناني. الحلقة الأخيرة من هذه الحرب، وهي لا تزال قائمة، شهادة صريحة على ذلك.

لا ننسى أنّ إسرائيل حالفت فريقاً من اللبنانيّين ودعمته بالعتاد والسلاح، لا ننسى أنّ حليفها الأوّل بشير الجميّل توصّل إلى سدّة الرئاسة، وأخوه الذي تبعه خاض مفاوضات صلح معها. ثم لا ننسى أنّ إسرائيل غزت لبنان ودخلت عاصمته.

الآن يخوض حزب الله حرباً معلنة معها، وكونها حرب إسناد كما يطلق عليها، لا يمنع من أنّها حرب حقيقية. التصعيد فيها يهدّد بتحوّلها إلى حرب شاملة. عند ذلك تحضر حرب غزّة بكوارثها ومآسيها، ليست هذه بعيدة على كلّ حال، إذ لا يمضي يوم من دون هجمات وهجمات مضادّة، تترك بعدها لا عدداً متزايداً من القتلى فحسب، بل ودماراً حقيقياً.

أين هُم اللبنانيون، بطوائفهم وأقسامهم، من ذلك كلّه؟ لا يسعنا أن نقارب الموضوع اللبناني من دون أن ننفذ إلى تكوينه الداخلي. هذا التكوين هو، على الدوام، تقاطع وازدواج في الداخل والخارج. الخارج يعني فوراً المنطقة التي تجمع أقطاباً عرباً وغير عرب. يمكننا أن نميّز بينهم أنظمة شيعة وأنظمة سنّة، إيران وسورية من ناحية والسعودية وقطر والإمارات من الناحية الثانية. لكن إسرائيل المحاذية على أهبة الاستعداد للتدخّل، بل هي تتدخّل على نحو مواربٍ، وخاصّة في الفترة الأخيرة التي سارعت فيها أنظمة عربية إلى الدخول في علاقات طبيعية معها. يمكننا القول إنّ حربها على غزّة امتحان مباشر لما يعنيه النظام العربي ومستقبل علاقاته. إسرائيل اليوم ليست بعيدة، إنّها، على نحو أو آخر، في عمق المنطقة، ولن يمضي الوقت حتى تصبح طرفاً فيها.

لبنان، اليوم، ذو صدارة شيعية، ذلك وضع يتأسّس من عقود، وهو الآن وريث مباشر للحرب الأهلية اللبنانية. بعد السلاح الفلسطيني الذي قامت عليه الحرب الأهلية، انتهى الأمر إلى الشيعة من وراء إيران، التي تقود اليوم حرباً شاملة ضدّ إسرائيل. كان السنّة في يوم هُم حلفاء الفلسطينيّين، ومن هنا كانوا في صدارة الحرب مع إسرائيل. الآن، بعد أن انتهت المسألة إلى إيران، لم تعُد الحرب ضدّ إسرائيل تماماً عربية، ولم يعُد السنّة في صدارتها. الحرب على غزّة تُهدّد بالتحوّل إلى حرب إقليمية، الشيعة على رأسها، رغم سنّية الفلسطينيّين، المعنيّين الأوائل بالمسألة.

ذلك بالطبع يطرح وضعاً جديداً وخاصّة في المحيط اللبناني. إذا بات الشيعة المحاربين الأوائل ضدّ «إسرائيل» فأين سيكون السنّة اللبنانيون، بل أين سيكون العرب تجاه المسألة التي طالما اعتُبرت مسألتهم المركزية؟ أين سيكون المسيحيون الذين ليس في تاريخهم القريب أو البعيد هذه الحرب؟ وأين ستكون المسألة نفسها بعد انقلاب في العلاقات العربية لا نعرف إلى أين سينتهي؟

(شاعر وروائي من لبنان)

فعاليات

نسائم تراثية بالمهرجانات الصيفية عنوان التظاهرة التي أطلقتها «وكالة إحياء التراث والتنمية الثقافية» في تونس العاصمة الخميس الماضي، وتتواصل حتى الثالث والعشرين من آب/ أغسطس المقبل. تتضمّن التظاهرة مجموعة من الفعاليات التي تُعرّف بالتراث التونسي، وتُقام ضمن عدد من مهرجانات الصيف.

حتى الثالث من الشهر المقبل، يتواصل في «غاليري أكتوبر» بلندن، معرض **عوالم داخلية، رحلات خارجية** للتشكيلي الغاني **أبليد غلوفر** (الصورة). على مدار سبعة عقود، رسَم غلوفر بالزيت على القماش مصوّراً المناظر الطبيعية وحركة الناس في الأسواق والساحات العامّة ببلاده، موظّفاً رموز من الثقافة الشعبية الغانية.

تُعرض، عند الثامنة من مساء الأربعاء المقبل، على خشبة «مسرح الفلكي» بالقاهرة، مسرحية **سالب واحد** من تأليف **محمد عادل** وإخراج **عبد الله صابر**، ويُعاد عرضها في اليوم التالي. يروي العمل حياة عائلة يعاني أحد أفرادها من إعاقة، لكنّها لا تمتلك الوعي الكافي للتعامل معه والعمل على تطوير مهاراته.

عند السادسة والنصف من مساء غدٍ، يُقام في «منتدى شومان الثقافي» بعمّان حفل توقيع للروائية الكويتية **بثينة العيسى** (الصورة) لمجموعة من كتبها. يستهلّ الروائي **إبراهيم نصر الله** الفعالية بكلمة ترحيبية، ثم تقدّم العيسى شهادة إبداعية حول تجربتها في الكتابة منذ إصدارها الأوّل عام 2005، يليها حوار مع الجمهور.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

كريم ستوم مسرحي

النوم في كَفَن

في 31 تشرين الأول/ أكتوبر جاء اتصال لوالدي يبلّغه بإخلاء البيت فوراً، إلّا أن والدي رفض أن نغادر منزلنا.

نجحت بإقناعه لاحقاً بأن ثمة فرصة أن نتوجّه لمستشفى الشفاء، ومع أن المستشفى كان مهدداً أيضاً، إلا أن ازدحامه بالعائلات والنازحين كان مطمئناً نوعاً ما، أو هكذا اعتقدتُ. فقد كنت أظن واهماً أن من المستحيل قصف مستشفى أو أيّ مركز طبي! في وهمي مثلي مثل الكثيرين.

حين وصلنا إلى مستشفى الشفاء كانت المفاجأة الصادمة أننا لم نعثر على أيّ مكان يسعنا، وبعد جهدٍ جهيد استطعنا إيجاد مكان قريب من السلالم، في قسم الولادة، ليضمني أنا وأخواتي وابنة عمي وزوجة عمي.

بعد بحثٍ جهيد تشاركنا فيه كلنا أنا وأخي وأولاد عمي، عثرنا على مكان عند ثلاجة الموتى لنقضي فيه ليلتنا. ففي الوقت الذي كانوا يصُفّون فيه جثث الشهداء صباحاً، كنا نرتّب أجسادنا حتى ننام فيه ليلاً.

بقينا في المستشفى أربعة أيام إلى أن جاءت مروحية وقصفت الطوابق الأخيرة في المبنى، كما قصفت جميع ألواح الطاقة الشمسية بهدف فصل الكهرباء وأية مظاهر تمدّ المستشفى بالحياة. ظلّ المستشفى تحت القصف والاستهداف، وحصدت الطائرات أرواحاً كثيرة من النازحين أمثالنا. اتصلت وقتها بصديق لي يقيم في رفح، وأخبرته بأنني أرغب بأن نتوجّه إليه، لكن والدي رفض المجيء معي، وقرر العودة مجدداً إلى منزلنا بعد أن قررنا ترك ملاذنا في مستشفى الشفاء.

كان قد سيطر عليّ خوفٌ شديد، وصمّمت على الذهاب للجنوب، فتركت والدي وإخوتي وتوجهت نحو جنوب وادي غزة مع وعد بأن أواصل طمأنة أبي طوال الطريق حتى أصل لمبتغاي. تجمعنا في البيت في حيّ الرمال. لم يكن البيت يبعد كثيراً عن المستشفى. عند التاسعة صباحاً، خرجت من البيت مشياً على الأقدام متجها إلى المنطقة التي يسكن فيها صديقي، والتي كانت تبعد خمسمئة متر تقريباً عن الحدود المصرية. في طريقي، مررتُ بحاجز للجيش اضطرني أن أحمل هويتي بيدي اليمين، وأقوم برفع ذراعي الشمال طوال فترة وقوفي، مثلي مثل غيري، في طابور صارم، لم نستطع أن نتحرّك به يميناً أو شمالاً.

كنتُ متوتراً جداً من أيّ تصرف عدائي مفاجئ قد يُقدم عليه جيش الاحتلال.

مشيتُ إلى أن وصلت إلى دير البلح، وقد كان من الصعب الاستعانة بمواصلات نظراً لغلاء أسعارها أو قلّة وجودها، أما العربات التي تجرّها الحمير، فقد كانت مسموحة فقط للعائلات، عدا عن أنها كانت مكلفة جداً بشكل خيالي. صادفتُ رجلاً طاعناً في السن طلبت منه القليل من الماء، فسقاني بعد أن سألني عن حالنا وودعني متمنياً لي السلامة.

وصلتُ إلى مفترق الطرق المؤدي للقرارة أو ما يسميه الناس «كيف القرارة»، وهذا عند أوّل مدخل مدينة خانيونس، ولحسن حظّي وجدتُ هناك رجلاً يقوم بتوزيع وجبات أرز ولحم. كنتُ جائعاً بشكل كبير، فأنا لم آكل منذ بدأتُ رحلتي مشياً على الأقدام كل تلك المسافة، ودفعني جوعي لأن أتجرأ وأقترب منه فأعطاني لفّة الرز واللحم، وقد مضى عليّ ثلاثين يوماً لم أذق فيها طعم اللحمة. نعم لم أذق طعم اللحم منذ ثلاثين يوماً.

أخذتُ وجبتي وسرت باتجاه أقرب بقالة، واستأذنت من صاحبها أن أجلس أمام بقالته لأتناول وجبتي. كان لطيفاً وسخياً، إذ قدّم لي ملعقة ومشروباً غازياً، وسيجارة «عندما كان سعرها دولارًا».

عدتُ لأكمل مسيري، أو بالأصحّ نزوحي، وقد كان صديقي يطمئن عليّ طوال الطريق. وصلتُ إلى منزله وقت المغرب وطمأنت أهلي، ثم مضى يومان لم أستطع فيهما حراكاً من كثرة التعب، إذ كنتُ أعاني من آلام شديدة في مفاصلي وعظامي.

كنا أنا وصديقي نقضي وقتاً في متنزه يقع مقابل بيته، والذي أصبح لاحقاً مليئاً بالنازحين وخيامهم. كلّ مساحة تتحول إلى مكان للنزوح.

في اليوم الثاني، جاءني اتصال من والدي يبلغني فيه بأن الجيش يحاصرهم في حيّ الرمال من جميع الاتجاهات، ولا يعلمون ما الذي عليهم فعله. كان والدي قد اضطر للعودة إلى مستشفى الشفاء. بعد فترة، أخبرني عبر اتصال آخر بأنه أخذ أخواتي من مستشفى الشفاء، واتجهوا جميعاً لمدرسة «الفلاح» وهو يحمل بيده ملابسي الداخلية البيضاء إشارة لطلبه الأمان.

بعد مضيّ أسبوع، لحق بي والدي للجنوب وأخبرني بأنه سيتجّه لمستشفى شهداء الأقصى في دير البلح. ولحسن الحظ حينها أنه حال وصوله تمّ التوصل لهدنة لمدة خمسة أيام، خلالها كنت أقضي وقتي مع أصدقائي، في خانيونس، بعد أن تركتُ منزل صديقي في رفح بسبب اكتظاظ النازحين فيه. وما أن انتهت فترة الهدنة حتى صدرت أوامر بإخلاء خانيونس، في تلك الفترة كنت قد انتقلت من بيت صديقي الذي استضافني لأسبوع إلى بيت عمي في المنطقة نفسها بخانيونس، حيث بقيت عنده إلى أن قررت التوجه لعائلتي والبقاء معهم حيث كانوا يحتمون في خيمة في مستشفى شهداء الأقصى في دير البلح.

حين وصلتُ إلى المستشفى لم أجد فراشًا أنام عليه، حينها توجهت إلى ثلاجة الموتى وأخذتُ كفناً لأنام فيه. أوقفني مسؤولٌ هناك وحاول منعي من أخذه، لكني قلت له بأنه سيكون من حقي عندما أموت، فلأستمتع به وأنا ما زلت حيًّا. كانت هذه الحادثة هي بذرة الفيلم القصير الذي أخرجته لاحقًا. بعد فترة، أرسل لي صديق من رام الله كلفة فِراش، وقد كانت كلفته عالية إلا أنه أصبح لديّ فرشة طبيعية أنام عليها.

في تلك الفترة، حدث اتصال بيني وبين المخرج رشيد مشهراوي، وطلب مني أن أعمل على صناعة فيلم من وحي الأحداث التي مررتُ بها. فكان من نومي لأيام داخل كفن، واستحمامي في مغسلة الموتى دون إدراكي بداية أنها لغسل الموتى، كلّ الفضل والأثر لأن تُخرج هذه الأيام المظلمة فيلمي القصير «جنةَ جهنم» إلى النور. الفيلم الذي عرض في «مهرجان كان» ضمن الاحتفال بمشروع أفلام غزة «أفلام من مسافة الصفر».

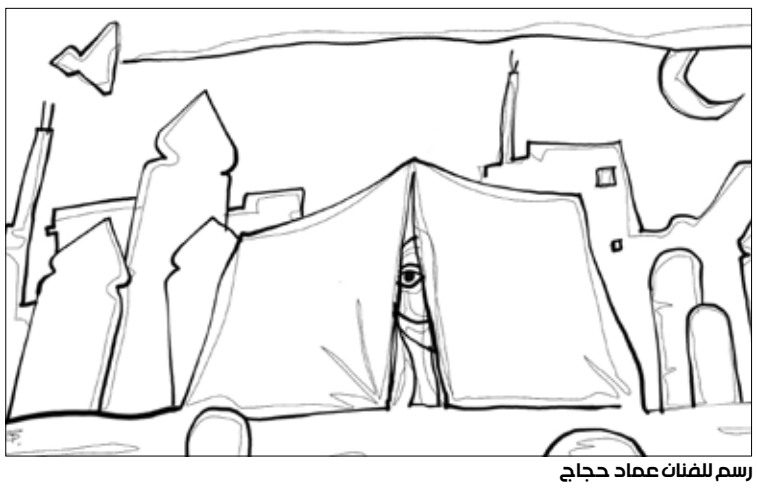

رسم للفنان عماد حجاج

> بعد بحث جهيد تشاركنا فيه كلنا، عثرنا على مكان عند ثلاجة الموتى لنقضي فيه ليلتنا

آلاء عبيد كاتبة

تفاصيل مملّة

قرابة الساعة السادسة والنصف؛ صوت ضجيج وتصفيق وتهليل.

اتجهت للنافذة على عجل، الكلّ يردّد: هدنة.. هدنة. الأطفال يصفّقون، يركضون، ويرقصون. وصوت إطلاق للنار في الهواء ابتهاجاً والنساء يزغرطن، يتعانقن، مهنئين بعضهن بالسلامة. أترانا نجونا؟ وسنحصد السلام والسلامة بعد أشهرٍ من الحرب والموت.

باسل ابني ذو السبعة أعوام، يركض نحوي ويعانقني، وقد تورّدت وجنتاه فرحاً. قال لي: «يعني هنرجع على غزة يا ماما، وهنشوف بابا. هرجع عالنادي ألعب كورة»، وتابع يسرد ماذا سيفعل عندما يعود بحماس كبير. باسل لا يعي كثيراً مجريات الحرب، لكنه عاش فرح اللحظة كاملاً.

الناس تتمسّك بخيط أمل، علّها تنتهي الحرب وتنتهي رحلة العذاب الطويلة..

وقد كان ما خفت حدوثه، إذ بدأت أخبار الرفض الإسرائيلي لعقد الصفقة بالانتشار. انكمش كلّ شيء. انطفأ الفرح، تجلّت الخيبة، وانخفض ضجيج المدينة. ضقت ذرعاً لعجزي وقلّة حيلتي وانكفأت على نفسي منهكة باهتة، ورحتُ أبكي طويلاً، ذكريات أشتاق إليها أريدها ليحتفل قلبي بها، ذكرياتي تلك كانت بداياتي التي أحبّ، وكانت خطواتي الواثقة للحياة ولأجل الحياة.

(أريد منزلي ويوماً قديماً)، هذا ما اختصرته عبر صفحتي على فيسبوك (المنزل)، واليوم بعد أكثر من نصف عام من حياة التشرّد والنزوح، غدا بمرادفات جديدة -النازح يحفظها جيداً- فالمنزل هو العائلة، الأنس، الدفء، الحرية، الألفة، الأمان، الهدوء، الراحة، الفرح، الاطمئنان. لن أثقل الوجع على نفسي أكثر، فغول القتل هذا لم يملّ بعد ولم يتعب؟!

أما عن الحرب، فستنتهي عندما ينجو الأحياء ويُدفن الشهداء ويعود الأحبة، ونخطو على عتبات منزلنا الراكدة على طرقات المدينة، حينها سنختار زوايانا بعناية لنبكي.. أقنعت نفسي بعد طول تفكير، بأن الحرب مستمرة لعدّة أشهر، وصرتُ أضع احتمالات أكثر قسوة لأزيد من قدرتي على احتمالها. القادم مؤلمٌ ويتطلّب مني الصبر ورباطة الجأش، خاصة مع تلويحهم باقتحام رفح، وهذا يعني نزوحاً آخر خلال ظروف أكثر صعوبة.

استيقظنا صباحاً على خبر اجتياح معبر رفح، ورفع العلم الإسرائيلي في باحاته، وعدتُ أرى الشاحنات تنقل مفروشات النازحين لمنطقة مواصي، بعد أن أعلن الجيش أنها منطقة خضراء.

■■■

رائحة الخوف هذه مألوفة عندي، جزع الناس هذا رأيته في السابق على وجوه آخرين، وفي أماكن أخرى. في رفح، الليلة صوت الزنانة أعلى من المعتاد، إنها تشبه ليالي قاسية عايشتها في غزة وخانيونس. الأيام تكرّر بعضها. ليس هذا فقط، لقد بتُّ أكثر معرفة بلحظات الانقضاض الأولى على المدينة، وكيف يبثّ القاتل سمّه في سمائها وبحرها وبرّها دفعة واحدة. والمدينة تنتصب شامخة أمام ما أُعدّ لها من قتل ودمار على يد مجرم طلق.

غريبة مساءاتنا. ليلة أمس، كان رنين ضحك الأطفال وتصفيقهم باقتراب الهدنة يثلج روحي، لقد احتفظت بأصواتهم في قلبي، ووضعت كفّي على صدري، لتظل الصورة طويلاً بعد أكثر من نصف عام من التعب، والليلة أغفو على وسادتي ناقمة على كلّ شيء، أجرّ أذيال الأسى والخيبة، بعد إعلان الجيش عن بدء اقتحام المدينة، ورفضه مقترح الهدنة.

نعم. باغتنا الحزن، وقد افترشنا بسطاً حمراء لاستقبال السعادة. أذكر أنني في بداية الحرب أخبرت أحدهم بأن أصعب ما في الحرب هو المجهول فيها. ماذا ينتظرنا؟ أين سنحتمي؟ كم سنحتمل؟ وهل سننجو؟

في اليوم التالي، وبعد مدّ وجزر وتفكير، قرّرت أن أكون أكثر صلابة وتماسكاً لأجلي ولأجل أطفالي الثلاثة. ردّدت كثيراً عبارة «ما أصابك ما كان ليخطئك»، لأروّض نفسي وأهدئها. اتجهتُ للمسير على طريق البحر المطلّ على المنزل الذي أنزح فيه، لآخذ قسطاً من الراحة والهدوء، وما إن خرجت حتى سمعت ضجيج النازحين، وأبصرت تزاحمهم وسيرهم بأشيائهم نحو اللاشيء. عشرات العائلات تحمل متاعها على عربات الأحصنة والشاحنات والسيارات، على طريق البحر، تنزح لتحتمي من جحيم الحرب، بعد أن قذفت طائرات العدو قصاصات تدعوهم لترك منازلهم والتوجه لمواصي/ خانيونس.

نزوحٌ جماعي متكرّر وحالة من التوهان والحسرة تراها بوضوح على قسمات الوجوه. اللافت أن النازحين كانوا يحملون أكبر قدر ممكن من متاعهم. لقد غدوا على دراية بأن مصير المنزل، إن لم يكن القصف والحرق، فهو النهب والتخريب. لذا النزوح بأكبر قدر ممكن من أثاثك وأدواتك وأجهزتك المنزلية، أصبح درساً تعلمه الجميع. كما أصبح لألواح الطاقة الشمسية حاجة ملحة ينقلها الناس معهم، أينما كانوا لما لها من ضرورة في توفير الكهرباء لشحن بطاريات الإنارة والهواتف النقالة، كما أنها أصبحت مصدر رزق للكثيرين، حيث يقدمون خدمة الشحن مقابل المال، بعد انقطاع للتيار الكهربائي لما يزيد عن ثمانية أشهر.. تابعتُ سيري محاولة أن أصرف بصري عن لوحة البؤس هذه.

لا أدري كيف مرّت الدراجة الهوائية أمامي. كان يقودها شاب عشريني نحيل القامة بقسمات وجه شاحبة باهتة جداً، يُجلس زوجته على هيكل الدراجة الأمامي، وطفليه في الصندوق الخلفي، يغالبهم النعاس وقد توردت وجنتاهما من حرارة الشمس، وبقجة صغيرة تحمل حاجياتهم، تتدلى من على المقود الأمامي، تمضي مترنحة نحو الشمال.

اختصر مرورهم حكاية نزوحنا كلّها. بقيتُ متسمرة في مكاني لبعض الوقت. بعد أن ابتلع الطريق طرف عباءة الأمّ السوداء المتطاير من على يسار الدراجة. صورة ستحصد جوائز عالمية لو التقطتها عدسة كاميرا مصوّر حذّق في المكان.

ابتسمتُ بسخرية، فصور مآسينا جابت صحف العالم والمواقع والمنصّات، ولم توقف سعير الموت هنا، وكأن عيون البشر اعتادت صور قتلنا ونزوحنا وجوعنا وبردنا ونحيب افتراقنا، وإن هانت مشاهد أوجاعنا، فلا داعي لأن نشاركها أحداً. ثم ما فائدة الصور والحقائق إن لم تغير الواقع! في فيتنام أوقفت الصورة الحرب، أما في حالتنا فلم تنجح لأن العالم يريد ذلك. خرجتُ لأستنشق هواء عليلاً، وأفكر بإيجابية. يجب أن أوقف التفكير بكل هذا؟! توقفت أمام البحر وصورة العائلة لا تزال تجوب عقلي رغماً عني، غالبتها، ورحت أدندن أغنية «حبّ يساري» لزياد الرحباني:

«بلا ولا شي بحبك.. ولا في بهالحب مصاري، ولا ممكن في ليرات، ولا ممكن في أراضي، ولا في مجوهرات. بلا ولا شي بحب».

■■■

غاز الطهي بات شحيحاً. والدي يقول إن أنبوبة الغاز أصبحت بسعر 1200 شيكل، وإن وجدت، وهذا يقدر بأضعاف أضعاف سعرها الطبيعي. هذه ليست المرة الأولى التي ينقطع فيها، غاز الطهي أزمة مستمرة متكرّرة تشتدّ وتنخفض من حين إلى آخر، يتجاوزها أغلب الناس بالطهي على النار التي يشعلونها من إيقاد الحطب الذي ارتفع سعره أيضاً..

اقترحت أمي أن نشتري أقراص الفلافل. إفطار الفلافل الجاهزة يقلّل استهلاك الغاز، لذا هو خيارٌ جيد في مثل هذه الظروف. بائع الفلافل هذا هو نازح من أحد أقربائنا، كان في غزة ينجّد الكنب، ويصنع أثاث الموبيليا، في سوق الشيخ رضوان، لكنه بعد النزوح اتجه لبيع الفلافل في المخيم، ونالت الفلافل التي يقليها على عجل استحسان الكثيرين، حتى بدأ الناس بالاصطفاف بطابور طويل أمام بسطته ليشتروها منه. وصارت له أغنية يرددها له أطفال المخيم: «أبو عوني يا مغوار يا أمير الفلافل»..

المياه الحلوة (مياه الشرب)، الخبز، الغاز، المياه المالحة (مياه للاستخدامات المنزلية)، أكثر ما نسعى لتأمينه خلال نزوحنا الثامن بعدما استأجرنا شقة في منطقة مواصي رفح، من مزارع بسيط يدعى أبو إبراهيم زعرب؛ رجل أربعيني، ريفي، أب لثلاث بنات وأربعة أولاد. أثارت إعجابي طريقة حياته الريفية البسيطة الهادئة، بعيداً عن ضوضاء المدينة قبالة شاطئ البحر، يقتات من حصاد أرضه، جلّ ما يحتاج من خضراوات وفواكه، غير مكترث بابتعاد مسكنه عن الخدمات كالسوق، والمدارس، والمراكز الصحية والمحال التجارية..

منطقته الهادئة اليوم باتت تأوي مئات الآلاف من النازحين، وافتتح قبل أيام أول مشفى فيه. نعم: المشفى الأميركي! تعرّفت أمي على أم محمد، وهي امرأة «معدلة» تمتلك صوتاً جميلاً بلكنة جذابة، تخبز الخبز لنساء المخيم على فرن الطينة الذي بناه لها ابناها اليافعان. نرسل لها العجين، بعد أن نرصه فوق بعضه على صينية «ستالس» ليعود لنا خبزاً شهياً. في الآونة الأخيرة، أصبحنا نرسل لها أكياس الطحين مع الخميرة والملح، وتقوم بإرسال الخبز جاهزاً. في عشاء إحدى الأمسيات، اتفقت العائلة أن خبزها أطيب ما تذوقنا من الخبز.

أتابع وصول سيارة المياه الحلوة (مياه الشرب) من النافذة، وغالباً ما يدلني ضجيج الناس على وصولها.

أنادي باسل ابني بشيء من الحماس «اجت يلا».. يركض مع إخوتي حاملين براميل المياه الفارغة، أمام أحد خراطيم السيارة الخمسة المتدلية، من جوانب خزانها. يتجمهر حولها العشرات من الأطفال والنساء والرجال والفتيان الكل يحمل برميله أو قربته أو أي آنية مختلفة جلبها معه، ويسعى لأن يؤّمن المياه الحلوة (مياه الشرب) لما يكفيه لليوم التالي، فالسيارة لا تزور منطقتنا إلا مرة واحدة في اليوم، والكمية لا تكفي لسدّ حاجات الجميع.

ذات مرة، تأخرت السيارة عن موعد حضورها المعتاد، وظلت النساء والأطفال والرجال؛ الكل يمرجح برميل مياهه الفارغة بين يديه، يمشون بعشوائية تتلاقى نظراتهم الحائرة والقلقة بين الفينة والأخرى. شارفت الشمس على المغيب، وصار الكل يفكر بضجر وخوف، كيف سيؤمن المياه إن لم تأت. مرّ الوقت بطيئاً، والكل ينتظر حتى بزغت سيارة المياه كقرص الشمس من نهاية الطريق. صوت التصفير والتكبير والتهليل ملأ المكان. لم يكن حضورها عادياً، لقد زفّت كعروس تماماً. كان منظر الناس مهيباً، وهم يتمايلون حولها يحتفلون بحضورها، والأطفال يتعلقون بحواف السيارة. ضحكتُ وبكيت في الوقت نفسه. كيف تقلبت الوجوه وكيف كساها الفرح والبهجة بعد ساعات من القلق والانتظار. أحزنني حالنا التي تبدلت وكيف صرنا نحتفي بما يفترض أنه طبيعي، وكيف وصل بنا الاحتياج لأن نعيش كل هذا!

أما عن انقطاع المياه المالحة، فهي المشكلة الأكبر بالنسبة لنا، فهو انقطاع مستمر لفترات طويلة، يدعونا للاجتهاد في الحفاظ عليها لأطول فترة ممكنة، وذلك للغسيل والجلي والتنظيف والاستحمام. كل هذا بات حاجة ملحة، حاولنا تجاوزها وذلك بشراء المياه من العربات المتجولة، إن وجدت في أيام انقطاعها.

يا لحياة النزوح هذه.

> غدا النازحون على دراية بأن مصير المنزل، إن لم يكن القصف والحرق، فهو النهب والتخريب